القرآن عربي مبين

من القضايا البدهية أن القرآن الكريم عربي الألفاظ والأساليب والصياغة ، فألفاظه هي التي كان يستعملها العرب في شعرهم ونثرهم ، وفي مخاطباتهم ، وطريقته في تأليف الجملة ، والجمل هي طريقتهم[1] .

والقرآن الكريم – مع ظهور هذه القضية – نبه عليها في أكثر من آية من آياته ، وأول ذلك أن محمداً – ﷺ – ، وهو الذي بعثه الله في العرب كان عربياً من صميمهم ، وكان رجلاً من أنفسهم ، ينطق بلسانهم ، ويفخر ببيانهم ، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم : ٤] .

ولم يعرف عن النبي – ﷺ – أنه كان يعرف لغة غير اللغة العربية ، ولم يذكر في سيرته أنه رحل إلى بلاد أخرى غير مرتين ما كان يمكن أن يتعلم فيهما لغة أخرى ، وقد ولد في قريش ، واسترضع في بني سعد ، ثم عاد إلى قريش ليقضي شبابه وكهولته فيها . وقريش وبنو سعد من أفصح قبائل العرب .

نعم كان يعرف ﷺ لهجات كثير من قبائل العرب ، وبذلك تسنى له أن يخاطب وأن يكتب إلى كل قوم من العرب بلغتهم .

وقد جاءت آيات قرآنية صريحة واضحة بأن القرآن أنزل بلسان عربي مبين ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٥] .

وقد وقعت شبهة في نفوس قوم من قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ ، فوهموا أن القرآن أنزل من السماء بمعناه ، وأن محمداً كساه ألفاظاً من عنده ، ولكن العلماء أجابوا عن ذلك إجابات مقنعة ، ومن ذلك ما قاله الزمخشري في تفسيره الكشاف ، حيث قال : (تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك ،

---

١ – انظر التمهيد .

لأنك تفهمه ويفهمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات ، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ، ونشأ عليها ، وتطبع بها ، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام ، يتلقاها بقلبه ، ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وإن كلم بغير تلك اللغة – وإن كان ماهراً بمعرفتها – كان نظره – أولاً – في ألفاظها ، ثم في معانيها ، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين) أ . هـ . كلام الزمخشري [1] .

على أن كلمة ﴿بِلِسَانٍ﴾ واضحة الدلالة على أن المنزل هو الألفاظ مع المعاني ، لأن المعاني لا توصف بأنها أنزلت بلسان ، وكلمة الإنزال نفسها ، وقد وردت في هذه الآية وفي آيات أخرى ، تفيد أن المنزل كان بلفظه ومعناه ، ذلك أنه لا يقال للمعنى إنه أنزل ، وإنما يوصف المعنى بأنه ألقى في القلب ، أو أوحى به ، أو ما أشبه هذه الألفاظ ، وكذلك لو كان إنما أوحى بمعاني القرآن إلى قلب الرسول لم تكن حاجة إلى وساطة الروح الأمين ، فإن الله أوحى إلى نبيه معاني الأحاديث القدسية ، ولم يكن النازل بها جبريل ، فكما لا يحتاج من يرى رؤيا في المنام إلى من يبلغه هذه الرؤيا غير صفاء روحه واتصالها بالملكوت الأعلى ، لا يحتاج من يوحى إليه معنى من معاني القرآن إلى غير هذا .

وقال سبحانه : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف : ٢] وقال : ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف : ٣] .

وعقل الأشياء هو إدراكها إدراكاً حقيقياً ، شاملاً لكل جزئياتها ، ولذلك جاءت هذه الكلمة مع إنزال القرآن عربياً ، لأنه إنما أنزل بلغتهم ليفهموه حق فهمه ، وليدركوه حق إدراكه ، أي ليعقلوه ، وهذا هو ما تؤديه كلمة ﴿يَعْلَمُون﴾ في قوله سبحانه : ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت : ٣] ذلك أن العلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، وهو إنما يستعمل فيما يعرف معرفة واضحة .

---

١ – جـ٣ عند تفسيره .

ومعنى تفصيل الآيات أنها جعلت فصولاً متفرقة في سوره لبيان حقائق العقائد ، والأحكام ، والحكم ، والمواعظ .

وقال عز وجل : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه : ١١٣] وقال : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر : ٢٨-٢٩] ، وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت : ٤٤] .

وقد تعنَّت كفار قريش فقالوا للرسول لولا أنزل هذا القرآن بلغة أعجمية ، فرد عليهم القرآن بأنهم لن يتركوا تعنتهم على أي حال من الأحوال ، فلو أنزله الله بلغة العجم لقالوا : أكتاب أعجمي ورسول عربي ؟ متعجبين من الاختلاف بين الرسول وبين كتابه ، بل وبين الكتاب وبين الأمة التي أنزل فيها الكتاب ، وهو مبالغة في التعنت ، فهم يعترضون حتى بعد أن اعترضوا على إنزاله بلغة العرب ، وفضلوا أن ينزل بلغة العجم ، والمتعنت لا يقنعه شيء ، كما قال الله تعالى فيهم : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام : ٧] .

فالتبين ، والفهم الحق ، والإدراك العميق لمعاني القرآن وأهدافه ومراميه ، وتقوى الله تعالى ، هي المقاصد الواضحة ، التي تضمنتها الآيات الكريمة السابقة من إنزال القرآن بلسان عربي مبين .

ومقصد آخر ذو بال ، لا يقل أهمية عن المقاصد السابقة ، ذلك أن هذا القرآن – كما هو معروف – أس هذا الدين ، وحجته ، والدليل الحاسم على صدق من جاء به ، ولا يتحقق ذلك حتى تثبت هذه الحجة على أكمل الوجوه وأتمها ، وسبيل ذلك أن يثبت عجز العرب عن معارضته ، وشأن الحجة أن تكون في متناول قُدَر الذين يُتَحدَّون بها ، ولا يكون ذلك حتى ينزل القرآن بلغة العرب التي مرنت ألسنتهم فيها ، وربيت ملكاتهم عليها ، وبالبيان الذي كانوا أقدر الناس عليه ، وأحفظهم له ، وألطفهم فيه .

ومن هنا يصح التحدي ، إذ يكون تحدي القادر ، الواثق من عجز من يتحداهم .

ولو أنزل القرآن بغير لغة العرب لقد كان يكون لهم العذر حين يقولون لمحمد إنك تعلمت لساناً غير لساننا ، وإنك تتحدانا بغير ما من شأننا أن نقدر عليه ، وليست هذه سبيل معجزات من سبقك من الأنبياء .

فكان من الحتم أن ينزل القرآن عربياً ليتحدى العرب في البيان الذى يفخرون به ، ويتباهون بقدرتهم عليه ، وأن يكون مبيناً واضحاً ، سهل الألفاظ والتراكيب ، حتى يكون ذلك أمعن في تحديهم وألزم في إبطال دعواهم أن لو شاءوا لقالوا مثل هذا.

ولكن إذا كان القرآن قد جاء هدى للناس ، وبياناً لقلوبهم وعقولهم ، ومرشداً إلى ما تضمنه من مقاصد وأحكام ، وأخلاق وفضائل ، وهذا - ولا شك - يقتضي أن يكون كله على درجة من الوضوح والإبانة بحيث يفهمه خاصة الناس وعامتهم .

إذا كان الأمر كذلك فكيف جاء فيه (المتشابه) الذي لا يعلمه البشر ، أو لايعلمه كثير منهم ؟. وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران : ٧] .

وقد أكثر العلماء من الحديث عن المحكم والمتشابه ، والذي تستريح إليه النفس :

أن المحكم ما كان معناه واضحاً ، ولفظه لا يحتمل إلا معنى واحداً ، وأن المتشابه ما احتاج فهمه إلى شيء من التأمل وإمعان النظر ، لأن لفظه يحتمل معنيين أو معاني ، أو لأنه يدل على بعض ما استأثر الله بعلمه مثل وقت قيام الساعة ، أو على ما يحسن فيه تفويض علمه إلى الله ، مثل الآيات التي تضمنت نسبة بعض

الجوارح إلى الله نحو : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح : ١٠] . ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن : ٢٧] ونسبة بعض الصفات التي من شأنها أن تنسب إلى الخلق لا إلى الخالق – تعالى – مثل الرحمة والمكر والغضب .

ولا شك أن ما كان من النوع الأول ، وهو ما احتاج في فهم معناه إلى إمعان نظر يمكن للعلماء أن يفهموه وأن يرجعوا في فهمه وتأويله إلى المحكم من الآيات ، وما كان من الأنواع الأخرى يكون ظاهر المعنى ، ولكن تأويله ، أو تفويض الأمر فيه إلى علم الله هو موضع الخلاف ، أما فهم معناه من اللفظ فلا عائق دونه .

وأما لماذا لم يكن القرآن كله على درجة واحدة من الوضوح ؟ فجوابه أن الله ــ سبحانه – أراد لعباده أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والدرس ، حتى يكون للعالم فضل على من رضي لنفسه الكسل ، واستنام إلى الدعة ، قال ابن قتيبة : (ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر . ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة) .

وقال أكثم بن صيفي : ما يسرني أني مكْفِيٌّ كل أمر الدنيا . قيل له : ولم ؟ قال : أكره عادة العجز)[1].

وقد أشار ابن قتيبة إلى جواب آخر ، وهو أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها وللعرب الإيجاز ، والإشارة إلى الشيء . وإغماض بعض المعاني .

وعنده أنه ليس في القرآن شيء غمض على المفسرين ، بل إنهم فسروا كل ما جاء في القرآن ، قال : (ولم ينزل الله شيئًا من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل على معنى أراده)[2] .

١– تأويل مشكل القرآن ص ٦٢ ، طبعة دار المعارف .

٢– المصدر السابق ، ص ٧٢ .

وما دمنا في الحديث عن لغة القرآن فلا مندوحة أن نعرض للإجابة عن هذا السؤال : هل في القرآن ألفاظ من لغة غير لغة العرب ؟

وقد أجاب بعض العلماء بالإثبات ، وذكروا ألفاظاً منها (الطور) وهو جبل باللغة السريانية ، و (القسط والقسطاس) ومعناهما العدل وهما من اللغة الرومية ، ومنها (هدنا) في قوله تعالى : ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ومعناها تبنا بالعبرية و (السندس) وهو الرقيق من الستر بالهندية ، و(الإستبرق) وهو الغليظ بالفارسية . وهكذا ، وقد عدوا من ذلك نحو مائة لفظة .

قالوا : وهذا لا ينافي أن القرآن أنزل باللغة العربية لأن وجود بعض ألفاظ غير عربية في كلام طويل عربي لا يخرجه عن عربيته .

وقال آخرون منهم الشافعي وابن جرير الطبري ، وأبو بكر الباقلاني صاحب كتاب (إعجاز القرآن) : لا يوجد في القرآن لفظ غير عربي لأن القرآن أنزل بلغة العرب ، ولو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة ، لأن الله جعله معجزة نبيه ، ودلالة قاطعة لصدقه ، وليتحدى العرب العرباء به ، وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها .

وأجيب عن الألفاظ التي ذكروا أنها غير عربية بأنها في الأصل أعجمية ، ولكن العرب نقلوها إلى لغتهم وتصرفوا فيها بالنقص من حروفها ، وخففوا من عجمتها ، واستعملوها في أشعارهم ومنثورهم حتى جرت مجرى العربي الفصيح ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن .

ورأى فريق ثالث أنها من باب اتفاق اللغات ، فهي عربية ، ولا مانع أن تكون قد وجدت في لغات سابقة للعربية [1] .

---

١ – انظر كتاب (البرهان في علوم القرآن) ، للزركشي ، جـ١ ص ٢٨٧ وما بعدها .

ومن مقتضيات هذه القضية الواضحة أنه لا يجوز لأحد أن يتصدى لتفسير آية من كتاب الله حتى يكون عالماً بالعربية علماً واسعاً ، قال بعض العلماء : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب .

والمعروف أن القرآن الكريم لم ينزل بكل لغات العرب ، فهي كثيرة ، ولكنه أنزل من بينها بلغة قريش خاصة ، ووجدت فيه كلمات من أربعين لغة أخرى من لغات العرب ، وإن كانت هذه الكلمات قليلة ، وقد نص العلماء على أشياء منها ، ولكننا لا نستطيع الآن أن نميز بين ما نزل بلغة قريش وما نزل بغيرها من لغات العرب لأن أصول هذه اللغات قد ذهبت ، ولم يبق لنا منها إلا صبابات نبه عليها علماء النحو وعلماء اللغة في كتبهم ، وهي لا تكفي لدراسة هذا الموضوع دراسة واسعة ، على أن كثيراً من هذه اللغات كان قد اندمج في لغة قريش قبيل الإسلام .

وسنزيد هذا الأمر توضيحاً عند حديثنا عن لغة قريش في الفصل التالي إن شاء الله تعالى .

****